رت م د :2170-0060
رت م د إ: 2602-523X

تطور نظام الحسبة في العصر الايوبي
(567-648 هـ/ 1171-1250م)

شوكت عارف محمد الاتروشي

جامعة زاخو اقليم كوردستان – العراق

الملخص : تعد مؤسسة الحسبة إحدى المؤسسات الادارية والخدمية المهمة التي لقيت إهتماما ملحوظا من قبل الايوبيين ،والبحث محاولة لاستعراض أهم التطورات التي طرأت على الحسبة، وذكر لأبرز الاجراءات التي قام بها السلطان صلاح الدين الأيوبي ومن أعقبه من السلاطين الايوبيين من أجل تطوير هذه المؤسسة مع الاشارة الى المهام المختلفة التي إضطلع بها متولوا الحسبة والتي شملت النواحي الدينية ، والاقتصادية والاجتماعية ، مما يثبت أن إهتمام الايوبيين لم يقتصر على مجاهدة الصليبيين فحسب ، بل شمل تطوير الجوانب الحضارية وخدمة السكان والسهر على أمنهم ومصالحهم، وبذلك ساهموا في تقدم الحضارة الاسلامية، كما جاء في البحث ذكر لأبرز من تولى الحسبة أو كتب عنها في تلك الفترة .
الكلمات المفتاحية : الحسبة ، العصر الايوبي ، نظم اسلامية

The AL-husba system in Ayubies Age

Abstract : AL-husba is considered to be one of the most important administrative and service institution, which received a good attention from AL-ayubids , the paper is an attempt to review the most important developments which happened to AL-Husba . IT also attempts to show the deeds which were made by the sultan Salah AL-dean AL- Ayuby and those who came after him, who wanted to develop this institution.

In this paper however , there's a reference to the important and security tasks which were done by those who were responsible of AL-husba and which included religious, economical, and social aspects. The paper also mentions the most important persons who were responsible of AL-husba or wrote about it in period.

The study proved that the attention of AL-Ayubids was not only concerned with fighting the Crusaders , but also it included the development of the civilization aspect , citizens , service , maintaining their security contributed to the development of the Islamic civilization.

أولاً – التعريف بالحسبة ونشأتها:

الحسبة لغةً: بمعنى العد، وترد بمعنى حسن التدبير ، وقد ترد بمعنى تحسب الاخبارأ تجسسها أو تحسسها، والاحتساب في اللغة طلب الأجر والمثوبة[1] .

أما في المدلول الشرعي والاصطلاحي فهي كما عرّفها الفقهاء :" أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله"[2]،ويمكن القول أنها وظيفة دينية ومدنية مبنية على القاعدة الشرعية التي وردت في قوله تعالى:" **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،واولئك هم المفلحون**"[3] .

والحسبة في عرف النظام الاداري كلمة اطلقت على ديوان مراقبة الموازين والمكاييل ثّم اطلقت على (شرطة الاسواق) وبهذا المعنى تناولها فقهاء المسلمين ومما كتبوه يتبين أنها نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية تجعلها في اطار قواعد الشرع الاسلامي، وتقع تحت شمولية الحديث الشريف"**لا ضرر ولا ضرار** " [4] لذلك يمكن اعتبارها وظيفة أو نظام استحدث من أجل تطبيق المباديء الاسلامية في السلوك والاخلاق"[5] .

ولم تكن الحسبة بعيدة عن نظام القضاء ،وكثيراً ما ادخلت في عموم ولاية القاضي رغم التباين بين الوظيفتين واعتبرها الفقهاء:" واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم"[6]، وهي تشبه ولاية المظالم في كونها تقوم على الهيبة والرهبة والقوة، وفي توجّه كليهما الى النهي عن المنكر وعملها مبني على الشدة والرهبة والسرعة في الفصل بخلاف عمل القاضي المبني على التحقيق والاناة في الحكم[7].

ويمكن اعتبار(المحتسب) بمثابة مصلح ديني اجتماعي ،اقتصادي له صلاحية المحاسبة القضائية ويكون عادة مفوضاً من قبل الخليفة أو الوالي ،ومن أهم واجباته مراعاة احكام الشريعة الاسلامية، واقامة الشعائر الدينية والمحافظة عليها ،والاشراف على الاسواق والنظر في ارباب الوظائف والآداب العامة ومراقبة الموازين والمكاييل والنقود وغيرها من الواجبات [8] فكانت مهمته مشابهة للبلديات والرقابة الصحية في الوقت الحاضر، وترجع البدايات الاولى لنظام الحسبة الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث باشرها بنفسه في كثير من الاحيان، وقد بدات بمراقبة الغش في الطعام فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه: " مرّ بصبرة طعام فادخل يده فيها فنالت بللاً ، فقال ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله، فقال افلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا فليس منا[9]،

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استعمل الصحابي سعد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه على سوق مكة[10].

واستمرت الرقابة على الاسواق طيلة العصرين الراشدي والاموي، ولم يكن لها ديوان خاص وكثيراً ما كانت صلاحيات المحتسب تدخل ضمن الواجبات المباشرة للخليفة أو من ينوب عنه، واقتدى الخلفاء الراشدون بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد عُرف عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يطوف في الاسواق يتفقد أحوالها وروي عند أنه راى رجلاً خلط اللبن فاراقه"[11] ، وعّين السائب بن يزيد عاملاً على سوق المدينة [12]، وكان الخليفة علي بن ابي طالب رضي الله عنه يمشي في الاسواق يرشد الضال ويأمر الباعة بعدم الفساد وحسن البيع وعدم الغش بالكيل والميزان"[13].

ومما يجدر ذكره أن لفظ المحتسب لم يرد الا في منتصف القرن 2هـ/ 8م أما قبل ذلك التاريخ فقد شاع استعمال مصطلح (العامل على السوق) والذي استمر استعماله طيلة العصر الاموي، ومع بداية العصر العباسي وبالتحديد في خلافة المهدي العباسي (158-169هـ/ 774- 785م) ظهر استعمال مصطلح(المحتسب) في الشرق الاسلامي في حين استمر استعمال مصطلح (العامل على السوق) في الاندلس وشمال افريقيا حتى فترة متاخرة ، وقد توسعت الاختصاصات التي باشرها المحتسب في العصر العباسي فتصدت للمشكلات الدينية والاجتماعية بالاضافة الى مراقبة الاسواق[14].

وفي ظل الدولة الفاطمية [15] ارتقى المحتسب ليصبح من كبار الموظفين توليه السلطة العليا بمرسوم فخم فكان الخليفة الفاطمي يستدعيه الى البلاط ويسلمه أمر التولية بنفسه[16] ، وكان الخليفة الحاكم بامر الله (386- 411هـ/ 996- 1021م) قد أعطى الحتسبة صلاحيات واسعة والزمهم التشدد في مراقبة الاسواق والآداب العامة، واورد الرحالة ناصر خسرو (ت: 481هـ/ 1088م) أنه لم يعد يسمح في عهد الحاكم بامر الله ببيع الزبيب حتى لا يستخرج الناس منه الخمر والذي لم يجرء أحد على شربه ، ومنع خروج النساء سافرات[17] ومن المهام الجديدة التي انيطت بالمحتسب في ذلك العصر هو نشر المذهب الشيعي ، وقد دآب المحتسب الجلوس في جامعي القاهرة ومصر(الفسطاط) للنظر في مشاكل السوق والفصل بين الخصوم [18].

تطور الحسبة في العصر الايوبي:

حدثت تغيرات جوهرية في الترتيب الاداري للدولة بعد قيام الدولة الايوبية 570هـ/ 1174م مقارنةً بالعصر الذي سبقه[19]، واشار القلقشندي الى أن الايوبيين قد خالفوا الفاطميين في " كثير من ترتيب المملكة وغيروا غالب معالم دولتهم"[20].

واهتم الايوبيون منذ قيام دولتهم بمحاربة الفساد ةتطبيق العدالة واتخذ سلاطينهم من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دستوراً لنهجهم واعتمدوا على التقاة والعلماء اداة لاستئصال شافة الفساد اينما وجد[21].

وعلى الرغم من انشغال الايوبيين بالجهاد والتصدي للغزاة الصليبيين والمغول الا أن ذلك الانشغال لم يكن يمنعهم أو يثن عزمهم على الاهتمام بالسياسة الداخلية وتطوير عدد من مؤسساتهم الادارية ومن بينها مؤسسة الحسبة لما لها من مساس باستتباب الامن الداخلي وتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن كونها واجهة من واجهات دولتهم ولها اتصال مباشر بعامة الناس.

وقد نظر الايوبيون الى الحسبة باعتبارها من الوظائف الدينية" جليلة القدر ، رفيعة الشان، واسندوا مهمتها الى وجوه المسلمين وأعيان المعدلين"[22]، لانهم كانوا اكثر حرصاً ووعياً في تطبيق احكامه، وقد جرت العادة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية أن يكون لكل مدينة محتسباً يمثلها بخلاف مصر حيث أبقى الايوبيون على التقسيمات الفاطمية التي كانت تقضي بوجود ثلاث محتسبين " محتسب القاهرةالذي كان له التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري كله، ويليه محتسب مصر(الفسطاط) وهو اقل مرتبة من الاول وله التصرف بالوجه القبلي كله، ويليهما رتبة محتسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على الثغر – البحري- "[23] .

ونظراً لاهتمام الايوبيين بالحسبة اصبحت قوية الصلة بالسلطة القضائية وكثيراً ما اسندت الحسبة والقضاء الى شخص واحد، وحظي متولوها بدعم كبير من قبل السلطة فكان اصحابها يترددون الى مجالس الحكام والقضاء ،كما افرد لهم مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف[24]، وهي الدار التي اعتادها السلاطين الايوبيون على الجلوس فيها بحضور قضاة المذاهب السنية الاربعة الى جانب اصحاب الوظائف الدينية المهمة[25]،رغبة منهم في اظهار تمسكهم بالعدل، وتروي المصادر عن السلطان صلاح الدين جلوسه بدار بتلك الدار كل اثنين وخميس خلا شهر رمضان[

وكان المحتسب في جلوسه بدار العدل يتقدم احياناً على بعض اصحاب الوظائف المهمة مثل وكيل بيت المال لا سيما اذا "كان ارفع منه بعلم او نحوه"[27].

وقد حظي متولوا الحسبة برعاية الدولة ودعمها لهم واشارت المصادر الى تلك الرعاية اذ اورد الصفدي (ت: 764هـ/ 1362م) عن الفقيه محمد بن اسماعيل بن محمد الحيزاني(ت: 615هـ/ 1218م) أنه تلقى التكريم من قبل السلطان صلاح الدين بعد تعيينه محتسباً على احدى مدن الجزيرة باعطائه ثلاثة مائة دينار وفرس وخلعة[28]. ولقي محتسب دمشق صدر الدين الحسن بن محمد بن عمروك (574- 656هـ/ 1178- 1258م) رعاية من الملك المعظم عيسى بن العادل وعظمت منزلته عنده[29]، واشار ابو شامة المقدسي الى استعانة الملك المعظم به في سنة 619هـ/ 1222م فقد أرسله الى جلال الدين خوارزم شاه في خراسان من اجل المساعدة للخروج من الضائقة والمجاعة التي حلت ببلاد الشام بسبب ظهور الجراد ، وعندما عاد من مهمته ولّاه مشيخة الشيوخ فضلاً عن كونه محتسباً [30] وبقي فيها حتى سنة 625هـ/ 1227م[31].

وقد ارتقى بعض من تولى الحسبة في تلك الفترة مناصب اعلى مثل محمد بن عثمان بن ابي الرجاء التنوخي المعروف بابن السلعوس (ت: 693هـ/ 1293م)الذي تولّى الحسبة بدمشق للملك الاشرف ثمّ ارتقى ليصبح وزيراً مُقرباً له [32].

ومن المؤشرات الاخرى التي تظهر اهتمام الايوبيين بمؤسسة الحسبة ما قام به السلطان صلاح الدين بعد دخوله لمدينة حلب سنة 579هـ/ 1183م حيث بادر الى تنظيم الادارة فيها، وكان من بين اجراءاته الادارية اصداره لمنشور خاص اوضح فيه الشروط الواجب توفرها لمن توليه الدولة هذه الوظيفة ، ومن بين تلك الشروط ضرورة أن يكون المحتسب اميناً، كريم الخلق، مقيماً للعدل مؤيداً للفرائض الدينية وعلى جانب من الذكاء والفطنة عارفاً باحوال الناس بعيداً عن الاطماع الشخصية[33].

وجاء في المنشور أيضاً ان المحتسب لا يستطيع ممارسة مهامه المكلف بها دون اعطاءه صلاحيات واسعة في الحبس والاطلاق واقامة الحدود، وبغية تحقيق ذلك دعى السلطان صلاح الدين امراء حلب وقضاتها الى مؤازرة المحتسب في تنفيذ مهامه[34].

من جانب آخر فقد حدد المنشور اهم الواجبات التي كان على المحتسب القيام بها من أجل ضبط السلوك الاجتماعي، وتنظيم الحياة الاقتصادية من خلال دوره في اشاعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وحفظ اموال الرعية ومراقبة المنتجات والبضائع المغشوشة[35].

كما انيط بالمحتسب مهمة مراقبة المكاييل والموازيين التي كان يتم فحصها في مكان خاص يعرف بـ" دار العدل" حيث كان المحتسب يلزم الباعة باحضار صنجهم وموازينهم الى تلك الدار لفحصها وامضائها فان وجد فيها خللاً الزم أصحابها بشراء نظيره مما هو موجود بتلك الدار[36].

ومن الجدير بالذكر أن دار العيار هي من بقايا مؤسسات الدولة الفاطمية التي ابقى عليها السلطان صلاح الدين واخذ ينفق عليها فيما تحتاج اليه من الالات واجر الصناع والمشرفين ونحوهم وجعلها وقفاً على اسوار القاهرة مه ما كان جارياً في اوقاف السور من الرباع والنواحي الجارية في ديوان الاسوار[37].

وقد دآب المحتسبة في ذلك العصر على المرور بالاسواق للتفتيش على نظافة الحوانيت ،وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام فلم " يكن يسمح للعجان أن يعجن الا وعليه ثوب مقطوع الاكمام ،وان يشد جبينه بعصابة بيضاء لتمنع عرقه ان يقطر"[38]. وكان يلزم السقائين بتغطية الاوعية وان يلبسوا السراويل القصيرة الضابطة لعوراتهم[39]،بالاضافة الى تفقده نظافة غيره من باعة الاطعمة[40].

وكان على المحتسب أن ينظر كذلك في الطرقات فيراعي ما ينبغي ان تكون عليه من الاتساع والنظافة، وأن لا تخرج مصاطب الدكاكين على الرسم الموضوع لها، وأن يكون لاهل كل صنعة سوق يختص بهم، فمن كانت صناعته تحتاج الى استخدام النار كالطباخ والحداد يلزمه بابعاد حانوته عن حوانيت أرباب الحرف الاخرى مثل العطارين وباعة الملابس، كما كان عليه مراقبة الخانات والحمامات وغيرها من المرافق العامة[41].

وكان المحتسب هو المسؤول في الترخيص لاصحاب المهن لمزاولة مهنهم وفق الشروط الاصولية المتعارف عليها فمن شهد له أهل المعرفة بالبراعة أقرّه على ما يتعاطاه من الصناعة ، ومن راه مقصراً نهاه عن التقصير، ومن عرفه جاهلاً بصنعته منعه[42].

ونظراً لتعدد واجبات المحتسب فقد كان له وكيل او نائب ينيب عنه في غيابه[43]،كما جاز له أن يجعل لاهل كل صنعة عريفاً من صالح اهلها، خبيراً بصناعتهم بصيراً بغشوشهم، مشهوراً بالثقة والامانة كي يتولى الاشراف عليهم ويكون عوناً له يستشيرهم[44].

وقد اعتمد المحتسب في كثير من الاحيان على (العرف)السائد بين أهل الاصناف في معرفة جودة الصنعة واتقانها ، والطرق الواجب اتباعها في عمل الصعة وتحريم وتحليل ما يجب أن يقوم به أهل المهن واعتبر الفقهاء العرف أساساً يستطيع المحتسب الرجوع اليه كما جعل من شروط اختيار المحتسب أن يكون :" من ذوي الاجتهاد العرفي في دون الشرعي"[45]، واصبح العرف بمرور الزمن نظاماً أو شبه قاعدة يسير عليه أهل الاصناف وتحتوي على تدابير وعادات وشعائر تلقى شفهياً[46].

وكان على المحتسب التعرف الى اخبار الاسواق وما يرد اليها من السلع وما تستقر عليه من الاسعار وقد قدّم ابن العديم (ت: 660هـ/ 1261م) رواية تاريخية كشفت عن مسؤولية المحتسب في تثبيت الاسعار فذكر بأنه عندما ثارت العامة في حلب على محتسبها مجدالدين بن العجمي لأن السعر كان مرتفعاً فقد بلغ الرطل من الخبز عشرة قراطيس ثمّ انحط السعر الى بيع الرطل بخمسة ونصف فركب نائب المحتسب وسعره بستة قراطيس فهاجت العامة عليه وقصدوا دكة المحتسب وهموا بقتل نائبه ، ومضوا الى دار المحتسب لنهبها وكان ذلك في شعبان سنة 629هـ/1231م[47].

ولما كانت واجبات المحتسب هي واجبات دينية واخلاقية قبل كل شيء لذا كان عليه تطبيق أحكام الشرع والجوال في الاسواق والاماكن العامة ومهاجمة مواطن الفساد، وضبط المتلاعبين والغشاشين والعمل على استتباب الامن الداخلي وقد شّبه البعض وظيفته بـ" الشرطة البلدية"[48]، كما أن وظيفة الشرطة اضيفة اليه أحياناً فكان له دور في الحفاظ على التماسك الاجتماعي للمجتمع الاسلامي وترصينه من خلال اقرار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان من مهامه تحقيق الامن الداخلي عن طريق تسكين العامة والقضاء على منازعاتهم في حالات الاضطرابات والفتن، ومكافحة المنجمين والمشعوذين واقامة الحد على الخمارين وابطال الملاهي والقضاء على الربا في العقود والقروض والكف عن الجدل الديني في العقائد الدينية، وعدم التعرض للسلف الصالح والقضاء على الشائعات الباطلة ، ومراقبة المسافرين،وصيانة أماكن العبادة الى غير ذلك[49] فكان واسطة بين أحكام القضاء والمظالم بل أن القضاة وولاة الامور كثيراً ما اذعنوا لاوامره الرادعة فقد ذكر ابو شامة المقدسي(ت: 665هـ/ 1266م) عن اتابك دمشق طغتكين(ت: 522هـ/ 1028م) أنه لما" اراد أن يعين محتسباً ذكروا له رجلاً من أهل

العلم والمعرفة فطلب احضاره فلما مثل بين يديه، قال :" أني وليتك أمر الحسبة فطلب احضاره فلما مثل بين يديه قال: اني وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال : أن كان الامر كذلك فقم عن هذه الطراحة ، وارفع هذا المسند الذي وراء ظهرك فانهما من حرير ، واخلع هذا الخاتم من اصبعك فانه من الذهب فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير" ان هذين حرام على ذكور امتي حل لاناثها"[50]. قال فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع مسنده وخلع الخاتم من اصبعه وقال : قد ضممت اليك النظر في أمر الشرطة فما رآى الناس محتسباً أهيب منه"[51].

أاما بالنسبة الى العقوبات التي كان يفرضها المحتسبة بحق المخالفين فقد تدرجت في شدتها ما بين التعريف بالخطا وذلك بالوعظ والنصح والتخويف والتعنيف بالقول الغليظ الخشن أو أن يلجا الى التغيير باليد كاراقة الخمور ونزع الذهب من اصابع المتحلي به[52].

وقد يلجأ المحتسب الى عقوبة التشهير :" فمن وجده قد غش مسلماً أو أكل بباطل درهماً أو أخبر مُشترياً بزائد أو خرج من معهود العوائد شهره بالبلد وأنزل به العقاب"[53].

وكانت عقوبة التشهير تتم عادة بأن يأمر المحتسب باركاب المخالف على جمل أو دابة ويُطاف به في طرقات المدينة وأسواقها وامامه حرس يقرع الجرس ليعلن للناس المجتمعين حوله عن سوء فعلته ثمّ يضرب بالسيط[54]. وقد يتعرض المخالف الى السجن أو النفي من بلده اذا تمادى في ضرره وغيه[55].

يتضح مما تقدم أن مؤسسة الحسبة كانت بمثابة الجهة الادارية التنفيذية التي حرصت على حماية المجتمع من الانحراف السلوكي في المجالات كافة ، وأن توسع الاختصاصات التي باشرها المحتسبة في العصر الايوبي جاء كنتيجة طبيعية لتطور المدينة الاسلامية ونمو اسواقها وتعقد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن اهتمام الايوبيين بالامن الداخلي وكنتيجة لهذا الاهتمام فقد برز عدد من المختصين والعارفين بنظام الحسبة والذين بدءوا بتاليف الكتب عن الحسبة – نظاماً واطبيقاَ- شرحو فيها اهداف الحسبة واسسها ومواصفات المحتسب وطرق اختياره، وتعيينه ومن مشاهير من تولى الحسبة وكتب عنها عبدالرحمن بن عبدالله الشيزري(ت: 589هـ/ 1193م)، وكان من العلماء الذين استعانت الدولة بهم لاصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج ، وقد قام الشيزري بوضع اصول الحسبة واوردها في كتابه الشهير :" نهاية الرتبة في طلب الحسبة" ، والشيزري شامي الموطن شافعي المذهب تضّمن كتابه أربعين باباً من أبواب الحسبة واعتبر المصدر الاساس لكل ما كتب بعده عن الحسبة، وكانت مادته العلمية

التي أوردها تشهد بطول باعه في العلم ولو لم يكن عارفاً ومُلماً باصول الحسبة لما استطاع جمع تلك المعلومات الغزيرة التي تناقلها العلماء عنه فيما بعد[56].

وقد ذكرت كتب التاريخ والتراجم ابتداءاً من القرن 6هـ /12م شخصيات عديدة تولت الحسبة لا سيما في بلا الشام ومصر، وكان من بينهم عدد من العلماء الكورد مثل القاضي ابو الفضل كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري(ت:492- 572هـ/ 1098- 1176م) الذي تولى مناصب عديدة في الدولتين الزنكية والايوبية كان من بينها حسبة دمشق[57].

واسندت السلطة أحياناً الى بعض المحتسبة وظائف اخرى مثال ذلك: القاضي تاج الدين عبدالوهاب بن بدر بن بنت الاعز الشافعي(614- 699هـ/ 1217- 1299م) الذي تقلّد قضاء الديار المصرية والخطبة ومشيخة الشيوخ وتدريس الشافعي ، وامامة الجامع فكانت بيده خمسة عشرة وظيفة وباشر الوزارة في بعض الاوقات[58]، كما جمع الشيخ نجم الدين أبو الفتوح مظفر الدين بن محمد الشيرجي الانصاري (ت: 657هـ/ 1259م) بين حسبة دمشق ووكالة بين المال ونظر الجامع الاموي فضلاً عن التدريس في المدرسة الغصرونية[59].

ومن يطالع تراجم المحتسبة في هذه الفترة يجد ان السلطة الايوبية لم تكن تعهد بهذه الولاية الدينية الا لكبار القضاة والفقهاء ووجوه المسلمين ممن حمدت سيرتهم وكثر المدح والثناء عليهم لتحقيق الغاية المرجوة من قيامهم بواجب الحسبة وسيتضح ذلك عند الاطلاع على التراجم الاتية: -

- فتح الدين السلمي المحتسب ، محمد بن عبدالصمد بن عبدالله المعروف بابن المعدل كان من الصدور الكبار وليّ حسبة دمشق مدة وبقي فيها حتى وفاته سنة 656هـ/ 1258م وكان :" مشكور السيرة ، محمود الطريقة موصوفاً بالعفاف والنزاهة ،كثير المهابة"[60] وحظيت اسرته بمكانة مقربة من السلطة الايوبية لا سيما جده نجيب الدين ابو محمد عبدالله الذي" كانت له مكانة مكينة عند السلطان صلاح الدين واولاده قديمة بينهما وكان عنده بمنزلة الصاحب والاخ حتى انه كان يدخل على حريمه ويحدثهن من وراء حجاب"[61].
- زيد بن نصر بن تميم الحموي المعروف بابو المواهب بن صصري (ت: 564هـ/) كان فقيهاً متكلماً على مذهب الاشعري تولى الحسبة بدمشق[62]

- ابو علي القرشي، الحسن بن محمود ولد بمصر سنة 560هـ/ 1164م، تولى مناصب عديدة منها عقود الانكحة والوكالة السلطانية بالقاهرة فضلاً عن الحسبة، توفي سنة 621هـ/ 1224م[63].
- جمال الدين ابو المكارم، محمد بن عقيل بن عبدالواحد بن احمد ، تولى الحسبة بدمشق مدة طويلة حتى عرف بالمحتسبي وكان:" كيساً ، وله هيبة وجلالة " توفي في السابع عشر من شوال سنة 647هـ/ 1249م[64].
- شمس الدين ابو الحسن، علي بن المظفر بن القاسم الربعي النشبي، كان مؤدباً ثم صار شاهداً ثم ناب في الحسبة بدمشق ،وكان محدثاً فاضلاً، طيب الصوت بالقراءة توفي سنة 656هـ/ 1258م عن عمر يناهز التسعين[65].
- جمال الدين ابو عبداللة محمد بن عبدالحق بن خلف الصالحي ، تولى الحسبة بدمشق ، ولد سنة 589هـ/ وكان فاضلاً حسن الاخلاق يؤرخ الوقائع والوفيات، توفي سنة 660هـ/ 1261م[66].
- ابو عبدالله محمد بن الفضل الربعي كان أحد فقهاء المالكية، تولى الحسبة بالقاهرة وتوفي سنة 629هـ/ 1231م[67].
- عبدالرحمن بن وثب بن نصرالله، ولد بدمشق سنة 586هـ/ 1190م وتولى قضاءها سنة 611هـ/ 1214م وما لبث ان عزل نفسه وتوجه الى حلب فتولى حسبتها سنة 624هـ/ 1226م وظل يشغلها حتى فقد بصره سنة 633هـ/ 1235م[68].
- رشيد ابو الفضل ، محمد بن عبدالكريم بن يحيى بن شجاع ، ولد بدمشق سنة 549هـ/ 1154م وولى حسبتها ثم تركها مدة ثم وليها في دولة الناصر داؤد توفي سنة 637هـ/ 1239م وله من العمر 88سنة[69].
- محمد بن احمد بن عنتر النسمي (ت: 661هـ/ 1262م) كان من أحد وجهاؤ دمشق وعدولها وتوّلى الحسبة بها مدة ثمّ رحل الى مصر وتوفي بها[70].
- عزالدين عيسى بن المظفر بن محمد بن الياس الانصاري، ولد سنة 627هـ/ 1229م ، ولّى الحسبة بدمشق ونظر الجامع وكان عدلاً محتشماً عالي الهمة ، توفي سنة 682هـ/ 1283م[71].
- منصور بن سليم الهمذاني ، ولد بالاسكندرية وكان مُحدثاً مشهوراً تولّى الحسبة بها وتوفي سنة 673هـ/ 1274م[72].
- فخرالدين محمود بن عبداللطيف ابن سيما احد شيوخ المعدلين بدمشق من أهل البيوتات ، تولّى حسبة دمشق مدة في بداية القرن 7هـ/ 13م[73].

- احمد بن عبدالكريم بن غازي الواسطي ، زين الدين ابو العباس ، ولد سنة 610هـ/ 1213م بالقاهرة وكان امام مسجد ينوب الحسبة بالقاهرة توفي سنة 696هـ/ 1296م [74].
- تاج الدين يحيى بن محمد بن حمزة الثعلبي المعروف بالمحبوبي ، ولد بدمشق 610هـ/ 1213م وشغل مناصب ادارية عديدة منها حسبة دمشق ونظر الايتام ووكالة بيت المال توفي سنة 671هـ/ 1272م[75].
- تقي الدين علي بن ابي بكر الهروي مضى في سنة 599هـ/ 1202م الى بغداد فكتب له الخليفة الناصر لدين الله توقيعاً بالحسبة في جميع بلاد الاسلام وتوقيع بخطابة حلب وتوقيع بتولي عقود الانكحة في جميع البلاد ثم رجع الى حلب ثمّ الى حماة ودخل في خدمة الملك المنصور فاحسن اليه[76].

الاستنتاجات

ف ي ضوء ما سبق يمكن القول أن نظام الحسبة في العصر الاوبي هو امتداد لما سبق ان عرفته المدينة الاسلامية من قبل الا ان هذه المؤسسة الادارية قد شهدت تغييرات مهمة وخطت خطوات متقدمة في ظل الدولة الايوبية التي توجهت منذ قيامها نحو تحقيق العدالة والمساواة والعمل من أجل ترصين جبهتها الداخلية، كذلك تعزيز وتنمية اقتصادها ليتسنى لها الوقوف بوجه التحديات والمخاطر االخارجية المحيطة بها وفي مقدمتها الغزو الصليبي لذلك وجد الايوبيون ضرورة الاهتمام بالحسبة وتدعيم دور المحتسب للقيام بالمهام الامنية الواسعة التي شملت النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد حظي متوّلوا الحسبة برعاية الدولة وسلاطينها وفي مقدمتهم السلطان صلاح الدين الذي اتخذ عدة اجراءات في هذا المجال كان من بينها اصداره منشوراً خاصاً بعد دخوله مدينة حلب أوضح فيه شروط توّلي الحسبة كما بين فيها أهم الواجبات المناطة بالمحتسب وجعل لكل مدينة مُحتسباً خاصاً بها.

ومن بين الاجراءات المُهمة الاخرى التي أقدم عليها السلطان صلاح الدين والخاصة بالحسبة هو ابقاءه لـ(دار العيا) وهي من بقايا المؤسسات الفاطمية وأخذ ينفق عليها بسخاء لكي تقوم بواجبها في مراقبة الموازين والمكاييل تحت اشراف المحتسب .

ونظراً لارتباط الحسبة بالقضاء والمظالم فقد نظر الايزبيون اليها باعتبارها وظيفة دينية قبل كل شيء وكثيراً ما أسندوا مهمتها الى القضاة والفقهاء كونهم أكثر حرصاً ووعياً في تطبيق

أحكامه وقد ارتقى بعض من تولّى الحسبة في هذه الفترة الى مناصب عالية كالوزارة ،كما ان بعض المحتسبة قد أظهر من المواهب والقدرات ما جعلت السلطة الايوبية تسند اليه أكثر من وظيفة .

وفي ظل الرعاية الايوبية أصبح المحتسب من كبار رجال الدولة وموظفيها واجيز له حضور المجلس السلطاني بدار العدل الشريف الى جانب اصحاب الوظائف الدينية المهمة الاخرى، وظهر عدد من المحتسبة المختصين ممن أخذ يكتب في الحسبة واصولها وما يتعلق بها ولعّل من اشهرهم عبدالرحمن الشيزري الذي استعانت الدولة به وكتب كتابه الشهير :" نهاية الرتبة في طلب الحسبة" وكان مصدراً لكل ما كتب بعده .

الاحالات والهوامش :

1 - ابن منظور، لسان العرب المحيط(بيروت:د/ت)، مج1/630، محمد فاروق النبهان، نظام الحكم في الاسلام(جامعة الكويت: 1987)،ص678- 679. .

2-الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية(بيروت:1994)،ص391، ابو يعلى، الاحكام السلطانية(القاهرة:1966)،ص284.

3 - سورة ال عمران، الاية(104).

4 - الالباني، صحيح سنن ابن ماجة(الرياض: 1988)،مج2/39.

5 - ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة(بغداد:1968)،ص12، محمد زيور،الحسبة في الاسلام،مجلة دراسات تاريخية،جامعة دمشق،1988،ع(29- 30)،ص149.

6 - الماوردي، الاحكام السلطانية،ص 392، ابو يعلى، الاحكام السلطانية،ص 285...

7 - الماوردي، الاحكام السلطانية،ص 393، وما بعدها.

8 - من الجدير بالذكر ان واجبات المحتسب في العصر الايوبي لا تختلف عن واجبات المحتسب التي وردت في كتب النظم الاسلامية . ينظر: الماوردي، الاحكام، ص 394 وما بعدها .

9 - السقطي، في اداب الحسبة(باريس: 1931)،ص 4.

10 - صباح ابراهيم الشيخلي، الاصناف في العصر العباسي (بغداد: 1976)،ص139، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافيوالاجتماعي(بيروت: 1965)، 316.

11 - ابن تيمية، الحسبة في الاسلام(القاهرة: 1318هـ)،ص43.

12 - ابن سلام، كتاب الاموال(القاهرة: 1968)، ص711، الشيخلي، الاصناف، ص 140.

13 - ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ(بيروت: 1978)،جـ3/8.

14 - محمد زيور، الحسبة في الاسلام،ص153، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام،جـ3/ 316.

15 - قامت الدولة الفاطمية على يد الشيعة الاسماعيلية في افريقية(تونس) ثم امتد حكمهم شرقاً وغرباً ثم انتقلوا الى مصر سنة 358هـ واتخذوا من القاهرة عاصمة للخلافة الفاطمية واستمر حكمهم حتى سنة 567هـ . ينظر : حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام ، جـ3/ 142.

16 - المقريزين المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار(القاهرة:د/ت)،جـ2/198.

17 - ناصر خسرو، سفرنامة(الرياض:1983)،ص95.

18 - المقريزي، المواعظ والاعتبار،جـ1/ 463.
19 - سيمينوفا.ا.ل، صلاح الدين والمماليك في مصر(القاهرة:1998)، ص233.
20 - القلقشندي،صبح الاعشى في صناعة الانشا (بيروت: 1987)،جـ4/3.
21 - الشيزري، المنهج المسلوك في سياسة الملوك(الزرقاء:1987)،ص91.
22 - المقريزي، المواعظ والاعتبار،جـ1/463.
23 - القلقشندي،صبح الاعشى،جـ4/38.
24 - اول من بنى دار العدل هو الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي بدمشق عندما بلغه تعدي نواب اسدالدين شيركوه الى الرعية وكثرة شكواهم وكان ذلك باقتراح من القاضي كمال الدين الشهرزوري . ينظر. ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية (بيروت:د/ت)، جـ1/8،المقريزي، المواعظ،جـ2/208.
25 - مثل قاضي القضاة وقاضي العسكر ومفتي دار العدل ووكيل بيت المال بالاضافة الى المحتسب. القلقشندي، صبح الاعشى،جـ 4/35- 36، المقريزي، المواعظ،جـ 1/209.
26 - ابو شامة ، الروضتين،جـ 1/8، المقريزي، المواعظ،جـ1/208.
27 - القلقشندي، صبح الاعشى،جـ4/38.
28 - الصفدي، الوافي بالوفيات(بفيبادن: 1961)،جـ2/217.
29 - الذهبي ، العبر في خبر من غبر (الكويت: 1966)،جـ5/227- 228، اليافعي، مراة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعبر من حوادث الزمان(بيروت: 1970)،جـ4/139.
30 - ابو شامة ، تراجم القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين(بيروت: 1974)،ص131- 132.
31 - ابو شامة، الذيل على الروضتين،ص 154.
32 - الصفدي، الوافي بالوفيات،جـ 4/86- 87، ابن كثيرن البداية والنهاية،جـ13/338.
33 - الاصفهاني،البرق الشامي(عمان:1987)،جـ5/136.
34 - الاصفهاني، البرق الشامي، جـ5/136...
35 - الاصفهاني، البرق الشامي،جـ5/136- 137
36 - المقريزي، المواعظ ،جـ1/464
37 - المقريزي، المواعظ،جـ1/464.
38 - ابن بسام، نهاية الرتبة،ص 22.
39 - ابن بسام، نهاية الرتبة،ص22، المقريزي، المواعظ،جـ1/463.
40 - ابن بسام، نهاية الرتبة،ص27 وما بعدها.
41 - ابن بسام، نهاية الرتبة،ص 27، السيد الباز العريني، الشرق الادنى في العصر الوسيط(بيروت:1967)،ص214.
42 - الاصفاني، البرق الشامي، جـ5/137.
43 - الشيزري، نهاية الترتبة في طلب الحسبة(بيروت: 1969)،ص12، سمينوفا، صلاح الدين والمماليك،ص 261.
44 - ابن بسام، نهاية الرتبة،ص 18،وقد سماهم ابن فضل الله العمري ب (الامناء) ينظر: التعريف بالمصطلح الشريف(بيروت:1988)،ص 162.
45 - ابو يعلى، الاحكام السلطانية،ص 285، ابن بسام، نهاية الرتبة،ص 10.
46 - صباح ابراهيم الشيخلي، الاصناف، ص 181.
47 - ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب(بيروت: 1996)،ص479.
48 - محمود ياسين التكريتي، الايوبيون في شمال الشام الجزيرة(بغداد: 1981)،ص 333، حمدي عبدالمنعم،ديوان المظالم نشاته وتطوره(القاهرة: د/ ت)،ص 322.
49 - الاصفهاني، البرق الشامي،جـ5/137، ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف،ص 162- 163.
50 - ابن سورة، الجامع الصحيح(سنن الترمذي)،مج4/189.

51 - ابو شامة، الروضتين ،جـ1/24، ابن بسام، نهاية الرتبة ،ص 12- 13.
52 - المقريزي، المواعظ، جـ1/ 646. .
53 -ابن فضل الله العمري، التعريف ،ص 163، سعيد عبالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام(القاهرة:1976)،ص381.
54 - ناصر خسرو، سفرنامة، ص110.
55 - النبهان، نظام الحكم،ص 716.
56 - الشيزري، المنهج الملوك، ص92.
57 - ابن خلكان وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان(القاهرة: 1950)،جـ 241/4، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(القاهرة: د/ت)،جـ 79/6.
58 - ابن كثير، البداية والنهاية،جـ 249/13- 250، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،جـ 7/ 222- 223.
59 - ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار الذهب(بيروت: د/ت)،جـ 289/5.
60 - الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ257/3- 258، ابن العماد، شذرات الذهب،جـ284/5- 285.
61 - الصفدي، الوافي بالوفيات،جـ 3/ 258.
62 - السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (بيروت:د/ت)، جـ4/ 220.
63 - المنذري، التكملة لوفيات النقلة(النجف الاشرف: 1968)،جـ 195/5.
64 - الصفدي، الوافي بالوفيات،جـ3/ 218، ابن كثير، البداية،جـ163/17.
65 - ابن العماد، شذرات الذهب،جـ280/5.
66 - الصفدي، الوافي بالوفيات،جـ3/ 218.
67 - المنذري، التكملة ،جـ 36/4.
68 - ابن الشعار، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان(الموصل:1992)،جـ30436/3.
69 - الصفدي، الوافي بالوفيات،جـ281/3،ابن العماد، شذرات الذهب،جـ186/5،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،جـ317/6.
70 - ابن كثير ،البداية والنهاية،جـ 241/13
71 - الكتبي، عيون التواريخ،جـ336/21.
72 - السبكي، طبقات الشافعية،جـ 157/5.
73 - ابو شامة، الذيل على الروضتين،ص 231.
74 - ابن العماد ، شذرات الذهب،جـ5/ 434- 435.
75 - الكتبي ،عيون التواريخ،جـ26/21.
76 - ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات(البصرة:1969)،مج4،جـ252/2، ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب(القاهرة: د/ت)،جـ225/3.